مجلة الرائد

العدد : ٢٢٥ الموافق في ذو القعدة ١٤٢١ هجري ٢ / ٢٠٠١ ميلادي

عنوان المقال : ربنا اجعلنا زرعاً من غراسك	بقلم : الأستاذ ماجد رسلان

ضَرْبُ الأمثال أسلوب بديع من أساليب التعبير جميل ، ورد في القرآن الكريم كثيراً ، للتنبيه عن أمر هام أو الإفصاح عن معنى يُراد تجليته وإيضاحه ، بنصاعة بيان ، كيما تدركه العقول ، لتتملاه العين وتطرب له الأذن ، ويهفو إليه القلب ، وتأنس به النفس .. من هذا القبيل ما جاء عن صفات النبي ﷺ وصحبه الأماجد في ختام سورة الفتح . يقول تعالى : { **مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمْ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً** } [الفتح : ٢٩] .

يقول سيد قطب رحمه الله في شأن هذا الوصف : " صفتهم في بشارته بمحمد ﷺ ومن معه أنهم **كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ** فهو زرع نامٍ قوي ، يُخرج فَرْخُه من قوته وخصوبته ، ولكن هذا الفرخ لا يُضعف العود بلْ يَشده **فَآزَرَهُ** أو أن العود آزر فَرْخَه فَشدّه **فَاسْتَغْلَظَ** الزرع وضخمت ساقه وامتلأت **فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ** لا معوجاً ومَحْنياً ، ولكن مستقيماً قوياً سوياً .. أما وقعه فهو وقع البهجة والإعجاب : **يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ** : وفي قراءة يعجب الزارع .. وهو رسول الله ﷺ صاحب هذا الزرع النامي القوي المخصب البهيج .. وأما وقعه في نفوس الكفار فهو وقع الغيظ والكمد **لِيَغِيظَ بِهِمْ الْكُفَّارَ** .. وتعمد إغاظة الكفار يوحي بأن هذه الزرعة هي زرعة الله ، أو زرعة رسوله ﷺ وأنهم ستار للقدرة وأداة لإغاظة أعداء الله ، وهذا المثل ليس مستحدثاً ، فهو ثابت في صفحة القدر . ومن ثم ورد ذكره قبل أن يجيء محمد ﷺ ومن معه إلى هذه الأرض ، ثابت في الإنجيل في بشارته بمحمد ومن معه حين يجيئون ..

وهكذا يثبت الله في كتابه الخالد صفة هذه الجماعة المختارة .. صحابة رسول الله ﷺ فتثبت في صلب الوجود كله ، وتتجاوب بها أرجاؤه ، وهو يتسمّع إليها من بارئ الوجود . وتبقى نموذجاً للأجيال ، تحاول أن تحققها ، لتحقق معنى الإيمان في أعلى الدرجات " (الظلال ٦/٣٣٣٢-٣٣٣٣) .

إن ضَرْب المثل في هذا السياق القرآني ينقلنا إلى موضوع السبب لإحداثه ، ألا وهو الموضوع الأطيب والأنصع والأشم والأعلى . . فنقول : ما هي الصفات الجُلّى الكريمة التي تحلى بها الصحب الحواريون حتى استحقوا هذا الثناء الكبير ، وهذه المنة العظمى من الجليل المتعال سبحانه ؟!

الذي لاح لي من خلال البحث والتأمل أن ذلك كان بسببين على ما أظن :

الأول : إنهم جعلوا رسولهم المجتبى الذي وصفه ربه العليم الخبير وصفاً دقيقاً جامعاً مانعاً كاملاً بقوله : { **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ** } [القلم : ٤] وكيف لا يكون كذلك وكان خُلُقه القرآن العظيم ؟! .

نعم جعلوه القدوة التي لا محيد عنها ، والأسوة التي لا رغبة عنها إلى غيرها ، وكيف لا و { **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ** } [آل عمران : ١٦٤] .

يقول الدكتور فضل حسن عباس : هذا خطاب للمؤمنين أياً كان جنسهم وأياً كانت لغتهم ، ترشدهم لقضية شرفهم وعزهم ، فالرسول الذي مدحه ربه { **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ** } إنما هو من أنْفُس المؤمنين فَحَرِيٌّ بهم أن يفخروا بهذا التكريم ، وجدير بهم أن يزكوا أنفسهم لأن نفسه ﷺ هي أزكى النفوس وأطهرها على الإطلاق .. { **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا** } [الشمس : ٧-٩] ، فإذا كان النبي من أنْفُس المؤمنين وأنْفَسهم فإن هذا من شأنه أن يكون سبباً في فلاحهم ، وبخاصة وهو ﷺ عارف بآفات النفوس ، وعالم بما يصلحها ، فهو لا يكلفهم فوق طاقاتهم ، وهو القائل : « **أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له** » . - بتصرف عن كتاب خماسيات مختارة في تهذيب النفس الأمّارة . وكيف لا و { **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ** } [التوبة : ١٢٨] . يقول سيد قطب رحمه الله : " لم يقل جاءكم رسول منكم ، ولكن قال : « من أنفسكم » وهذا أشد حساسية وأعمق صلة ، وأدل على الوشيجة التي تربطهم به ، فهو بضعة من أنفسهم تتصل بهم صلة النفس بالنفس وهي أعمق وألصق وأحسّ " الظلال (١٧٤٣/٣) .

وكيف لا وقد استمعوا لنداء ربهم : { ... **اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ** ... } [الأنفال : ٢٤] فاستجابوا سراعاً استجابة طيبة نافذة ، وَهَبُّوا خِفافاً وثقالاً ولبُّوا النداء تلبية قوية عميقة ..

أجل ! إن المطلع على سيرة هذا النبي العظيم الحافلة بكل مواطن الحق والخير والنور والعدل .. يجد أنها حوت باستقصاء تام كل صفات جميع الأنبياء قاطبة على تنوعها ، فكانت شخصيته الكريمة الآسرة بحق النموذج الفذ المغني عن كل قدوة بديلة عنها ، لأنها موصلة لكل الغايات التي يتطلبها رضوان الله عزَّ وجلَّ في منهج دينه الذي جاء كتابه العزيز شريعة كاملة خاتمة ناسخة ، فالصحب الكرام كانوا النموذج الأروع في الإقتداء به في كل جليلة صغيرة أو كبيرة !!

الثاني : أنهم هيأوا أنفسهم وقلوبهم وأرواحهم لاستقبال الهدى والنور والحق .. بعدما جَلَوْها ، وطَهّروها ونَقّوها من كل دَغَل وغَبَش ومن كل دَخن وعمش .. فغدت أرضاً مستقيمة نقية .. تستقبل كل غراس طيب ، وتحتضن كل استنبات من بذور الحق والخير والفضيلة .. وإن هذا يقودنا إلى أمر ذي بال أشار إليه الصحابي الشاب جندب بن عبد الله حين قال : (**كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حَزَاوِرة ، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن ، ثم تعلمنا القرآن فازْدَدْنا به إيماناً**) صحيح ابن ماجه (٥٢/١) .

إذن لا بد من همة إيمانية داخلية ، إيجابية فاعلة ، ناهضة عالية لتطهير العقل والقلب والروح ، همةٍ إيمانية تذلل الصعاب وتهيئ الأسباب ، بعدها يكون التوجه نحو العمل الخارجي ، حركة جلاد نفسي ، وجهاد استشهادي .

مهما غلت التضحيات ووقفت العقبات الكأداء سدوداً مانعة من متابعة المسير إلى الله ، فالأمل به أعظم ، والرجاء بما عنده أكبر من كل ما يعترض الطريق من آلام ونكبات ، وصروف وابتلاءات ، والذي يزيد من صلابة المؤمن أمام التحديات دون أن يستكين أو يضعف تلك البشرى العظيمة الجليلة التي يتلقاها من رسوله الكريم وهو يتحدث عن ربنا المنان الحكيم : « **لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرساً يستعملهم في طاعته** » **صحيح ابن ماجة (٨/١)** .

إن الخوض في أمواج العمل الجاد العاتية بعد استكمال الاستعدادات والأخذ بجميع الأسباب والمُسَبَبات ، وتهيئة النفس لملاقاة مختلف صنوف الغمرات ، لمعارك الحياة التي لا يحصيها عَدّ على كل صعيد ، مع الاستماع البليغ للنبي القدوة الذي سلك طريق الدعوة قبلنا والمحفوف بالمهالك يوضح لنا المسالك ، وما ينبغي أن يكون عليه حال السالك .. ويكون العزاء عظيماً وكبيراً ، وأي عزاء أكرم وأنبل من قوله ﷺ وهو ينبهنا لأخذ الأهبة والاستعداد : (**مثل المؤمن كمثل خامة الزرع من حيث أتتها الريح كَفَأتْها ، فإذا سَكَنَتْ اعتدلت ، وكذلك المؤمن يُكفأ بالبلاء ، ومثل الفاجر كالأرزة صماء معتدلة حتى يقصمها الله تعالى إذا شاء**) . وفي رواية (**مثل المؤمن مثل السُنبلة ، تستقيم مرة وتخِرُّ مرة ، ومثل الكافر مثل الأرزة لا تزال مستقيمة حتى تخر ولا تُشعر**) . وفي رواية : (**مثل المؤمن كمثل الزرع لا تزال الريح تُفيؤه ولا يزال المؤمن يصيبه بلاء ، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لا يهتز حتى يُستحصد**) صحيح الجامع (١٠١٧/٢) .

فهذان الأمران ومقتضياتهما يكون حال المؤمن على رجاء موعودٍ حبيب ، من صاحب الشان العتيد ، أن يجعله سبحانه وتعالى غرساً نافعاً ، غرساً صلداً قوياً ، غرساً عادلاً مستقيماً ، غرساً ذا بهجة

بهية يؤتي ثماره دانياً جنياً .. { ... **كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** } [البقرة : ٢٦١] ، و{ ... **كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۞ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** } [إبراهيم : ٢٥-٢٤] .

وإذا قُدّر للمؤمن أن يحظى بهذه المكرمة الغالية ، وهذه المنزلة المُنيفة ، وهذه القوة المنيعة .. فأي شيء من الصعاب والعقبات المثبطات يمكن أن تقف في طريقه ، وأي قوة غاشمة من الطغيان تحول بينه وبين الوصول إلى الهدف الأسمى، وأي خوف يمنع من تحقيق رضوان الله في أوامره ونواهيه كافة ؟!

وإذا قُضي له أن يحظى بشرف الاختيار ، وقوة التأييد ، وتحصيل الجزم والحزم والعزم من صاحب البأس الشديد والأمر الرشيد ﷻ ، فمن يستطيع أن يغالب قدراً أمضاه بعلمه وحكمته ، ومن يستطيع أن يهدم صرحاً شامخاً وضع أساسه الجبار بقوته ، ومن يستطيع أن يستحصد زرعاً قبل أوانه غَرسَهُ البارئ بعنايته الفائقة ومشيئته اللطيفة .. ليكون زرعاً قوياً استوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ به الكفار !!

إن المؤمن الصادق الصدوق لا يستطيع أمام هذه المنة أن يتقهقر متخلفاً ناكصاً على عقبيه ، ولا أن يقاوم إغراء عذباً لا يستسلم لأسره وهو يسمع حديث رسول الله ﷺ فيما خرجه الطبراني عن عبادة بن الصامت بشأن العبادة في رمضان ، حيث قال النبي الأمين : « **أتاكم رمضان شهر بركة يغشاكم الله فيه فينزل الرحمة، ويحط الخطايا ويستجيب فيه الدعاء وينظر الله تعالى إلى تنافسكم فيه ويباهي بكم ملائكته ، فأروا الله من أنفسكم خيراً ، فإن الشقي من حُرم فيه رحمة الله عزَّ وجلَّ** » .

فأي مؤمن تغشاه رحمات ربه ، وتتنزل عليه بركاته ، وقد استجاب لندائه بالإسراع إليه في كل طاعة والنفور عن كل معصية ، وحث الخطى لاستدراك كل تقصير .. كيف لا يطرب لهذا الكلام العذب من الهادي البشير عن الخالق جلَّ وعلا وهو ينظر إلى تنافس عبده مع المتنافسين نظرة الرضا والقبول ، نظرة المنة والفضل ، وهذا ليس مقصوراً في رمضان فحسب ، بل هو قائم في كل حين على مدار الأيام ، وفوق هذا وذاك يباهي بعبده ملائكته المقربين مباهاة افتخار ، ومباهاة تشريف ، ومباهاة انتقاء ، وصدق الله العظيم القائل في محكم كتابه : {... **وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ** ... } والقائل : { ... **اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ** } **[الشورى : ١٣]**

ابنَ الإسلام تملى هذا يقيناً واعتقده تحقيقاً .. الله البارئ المحيط ، العليم الخبير، القابض الباسط ، المعز المذل .. هو الذي يغرس الغرس ، وهو الذي ينظر إلى تنافس عباده ، وهو الذي ينتقي ويختار .. فكيف لا تسارع إلى ساحات النور والفلاح والنجاح ؟ كيف لا تسارع إلى من يعطي بلا عَدٍّ ولا حَدٍّ .. وأنت المُستخلف في هذه الأرض ، وأنت الطارئ الدخيل عليها ، فلست ثاوياً فيها إلا بمقدار زمن لا يعلم وقته ولا مداه إلا العليم الحكيم المهيمن .. وكن كما كان الصحب الكرام صور مصغرة .. عن نبيك العظيم ﷺ .

ابن الإسلام اغتنم حياتك قبل موتك وصحتك قبل سقمك وشبابك قبل هرمك وفراغك قبل شغلك .. فما زال مضمار السباق والتنافس قائماً ، وقد سبقك في ذلك سلف صالح كريم أثنى عليهم ربهم مع نبيه ﷺ . فيجدر بك أن تستظل بمظلة هذه الآية الكريمة لتتبوأ منزلتهم وتكون معهم ، رجاء أن تكون أيضاً من أهلها فتفوز كما فازوا في الدنيا والآخرة ، يقول تعالى : { **وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالأنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** } [التوبة : ١٠٠] .

ابنَ الإسلام إذا كنت كذلك فأرجو الله عزَّ وجلَّ أن يجعلك قائماً بحق وصدق في صف من عناهم بقوله : { **وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ** } [الحشر : ١٠] .

اللهم توفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين ، واجعلنا في مضمار هذا التنافس والتسابق غرساً من غراسك ، نكون فيه خير خَلَفٍ لخير سَلَفٍ تُبهج به صدور أوليائك ، وتكمد به نفوس أعدائك ، واكتبنا إلهنا بمنّك وجودك أن نكون من أهل هذا الحديث الشريف الذي حدثنا عنه نبيك الكريم قبل أربعة عشر قرناً حيث قال ﷺ : (**لكل قرن من أمتي سابقون**) صحيح الجامع (٥١٧٢/٢) . **اللَّهم آمين آمين آمين .**